

واقعية العنف الكولونيالي وضرورة العنف الثوري في فلسفة فرانس فانون

The Reality of Colonial Violence and the Necessity of Revolutionary Violence in Frantz Fanon's Philosophy

يوسف خيرة^{1*}، حموش تونسية²

¹ جامعة الجزائر 02 مخبر الجماليات والفنون والفلسفة المعاصرة kheira.yousfi@univ-alger2.dz

² جامعة الجزائر 02 مخبر الجماليات والفنون والفلسفة المعاصرة tounsia.hamouche@univ-alger2.dz

تاريخ الاستقبال: 2024/10/28؛ تاريخ القبول: 2024/12/07؛ تاريخ النشر: 2025/02/10

ملخص: استخدام العنف كوسيلة تحررية مناهضة للاستعمار يعد أمرًا ضروريًا ومهمًا من وجهة نظر فرانس فانون كمفكر ثوري وإنسان مر بتجارب حياتية صعبة، كان يعتقد بأن العنف المضاد ضروري للمقاومة ضد الاستعمار وتحقيق السيادة الوطنية والحفاظ على الهوية الثقافية والقومية كما يعتبره وسيلة تحقيق العدالة سياسيًا وأخلاقيًا وقانونيًا، إذ هو الحل الوحيد لمواجهة العنف الاستعماري القمعي. فهو يرى أن العنف الثوري ليس فقط دفاعًا عن النفس بل هو أيضًا أساسًا لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية.

ومن خلال هذا المنطلق، يعتبر فانون أن العنف الثوري يكمن في قوة الشعوب المستضعفة لمحاولة تغيير واقعها والتصدي للاستعمار، كما يروج للدعوة إلى استخدام العنف كأداة تحررية في مواجهة الكولونيالية المتعصبة.

الكلمات المفتاحية: فرانس فانون؛ عنف مسالم؛ عنف كولونيالي؛ عنف ثوري؛ أخلاق سياسية

Abstract: the perspective of Frantz Fanon, a revolutionary thinker and a man who experienced difficult life situations. He believed that counter-violence was essential for resisting colonialism, achieving national sovereignty, and preserving cultural and national identity. Fanon viewed it as a means of achieving justice politically, morally, and legally, as it is the only solution to confront oppressive colonial violence. He saw revolutionary violence not only as a form of self-defense but also as a foundation for achieving social and political justice.

From this standpoint, Fanon considers revolutionary violence as a force for oppressed peoples to attempt to change their reality and confront colonialism. He also advocates for the use of violence as a liberatory tool against fanatic colonialism

Keywords: Frantz Fanon; peaceful violence; colonial violence; revolutionary violence; political ethics

يعد فرانس فانون (1925-1961) من أبرز المفكرين الذين ربطوا بين العنف والتغيير الاجتماعي والسياسي، في كتابه "معدبو الأرض" (1961)، يشير فانون إلى أن العنف يعد أداة حتمية وضرورية لتحرير الشعوب المستعمرة، ويعتقد أن العنف هدف لتحقيق أهداف سياسية و عملية لتطهير النفس المستعمرة، حيث يمكن للدول أن تتكمن من استعادة السيادة وفرض وجودها.

حسب فانون العنف أيضا ليس مجرد رد فعل على القمع الاستعماري، بل هو أيضًا تعبير عن الإرادة للتأثير في البنية الاجتماعية والسياسية. وهو ما يسميه بالعنف المبرر كسبيل وحيد لإعادة بناء مجتمع قائم على أسس جديدة من التسامح والمساواة، حيث يهدف إلى إقامة نظام جديد للتجاوز الإرث الثقافي والسياسي الكولونيالي.

من هذا المنطلق، يعتبر فانون العنف شرطًا ضروريًا لإحداث تغيير حقيقي وشامل، حيث لا يمكن تحقيق التعايش والانتماء في مجتمع شوهته الممارسات الاستعمارية إلا من خلال تفكيك هذا النظام بالعنف وبناء سلطة جديدة تستند إلى قيم العدالة

-فهل يمكن اعتبار العنف أداة لتحسين الحياة الإنسانية؟ وما المقصود بالعنف المسلم عند فانون؟ وما مدى إمكانية اعتبار العنف وسيلة للتحرر؟

فرضيات الدراسة:

. إبراز القيمة الفكرية لفرانس فانون باعتباره صديقًا للثورة الجزائرية

. استحضار فكرة العنف المسلم عند فانون وجعلها مكونًا أساسيًا في مشروعه الإصلاحية

أهمية الدراسة: يكتسي الموضوع أهمية بالغة لدى الباحثين لما عانته المجتمعات الإسلامية من هيمنة القوى الاستعمارية، وفرانس فانون كواحد من الذين عاشوا هذه الحقبة قد أدرك ما يمر به المجتمع من فوضى الاستعمار وأثره السلي على المجتمعات، فترتب عن ذلك مقاومة ثورية وحدت مصالح الشعب وأسست للعنف الثوري.

خطة العمل:

اولا. شخصية فرانس فانون في سياقها الثقافي والفكري

ثانيا - موقف فرانس فانون من العنف الكولونيالي

ثالثا - العنف المشروع عند فرانس فانون

رابعا - الموقف السياسي من العنف عند فانون

خامسا - العنف وأخلاق السياسة عند فانون

سادسا - العنف المسلم والحاجة إلى التحرر عند فانون

خلاصة الموضوع

1. شخصية فرانس فانون في سياقها الثقافي والفكري:

يعتبر فرانس فانون مفكر مارتنيكيا تعود أصوله الى أولئك الرقيق الذين حملوا منذ قرون إلى جزر الأنتيل* من إفريقيا، وكانت تشكل المارتنيك* مع جزر الأنتيل منطقة شملتها السيطرة الفرنسية منذ القرن السابع عشر(كبير، دس، ص99) كما يعد مناضلا ورمزا للنضال من أجل العدالة والتحرر، غير أن الكثير منا لا يعرف فانون ويجهلون مسار حياته المفعمة بالكثير من الأحداث الهامة، ومن هذا المنطلق كان علينا الإشارة إلى حياته ومرجعياته الفكرية.

فانون من جذور إفريقية عريقة قبل أن تنال نصيبها من الاستعمار الذي كان من طرف فرنسا، فكانت المارتنيك كأي مستعمرة تعيش الطبقة والانقسام وتدهور الأوضاع الاجتماعية

ولد فرانتز فانون Frantz Fanon في 29 جويلية 1925م في بلدة "فور دو فرانس" بجزر المارتنيك وهي منطقة تابعة لفرنسا، ولقد تميزت فترة شبابه بالاضطراب مثل ما كانت حالة الشباب الذين من جيله، الذين تأثروا بعواقب الحرب العالمية الثانية في جزر المارتنيك (حيفري، 2007، ص19).

ترعرع في كنف عائلة ميسورة الحال من الطبقة المتوسطة حيث حمل الامتعاض لوالده يمكن أن نلتمسه في مقطع من رسالة كتبها "فانون" لوالده سنة 1944م يقول فيها: " لو نحن أبنائك لأديت واجبك نحونا لو نحن أبنائك، لما قصرت اتجاهنا...، إن الوالدة وحدها هي من تستحق كل الثناء والتبجيل... إنني أستطيع أن أرى التعبير الذي سينطبع على وجهك وأنت تقرأ هذه الأسطر، لكنها الحقيقة أنظر لنفسك، وانظر للسنوات التي انصرمت عد لروحك، وتحل بالجرأة لتقول لقد هجرتكم" (كبير، دس، ص10).

كان فانون قد أنهى دراسته الابتدائية وجزء من دراسته الثانوية، حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية لذا فقد سافر إلى الدومينيكا ليلتحق بالقوات الفرنسية الحرة إلى جانب الإنجليز والأمريكيين ضد ألمانيا وإيطاليا، وقد تطوع استجابة لنداء الواجب والضمير باعتباره فرنسيا متجاوزا بذلك كونه أسود البشرة، فقد عاش صراعا مريرا مع الرجل الأبيض (كبير، دس، ص11).

وفي عام 1949م غادر فانون المارتنيك، وفيما كان يقرأ الفلسفة، درس التحليل النفسي في كلية "ليون" الطبية وكانت له مكانة مرموقة بين زملائه وأساتذته واحتكاكه بفلاسفة أوروبا آنذاك (قصير، 2018، ص289)، كما حصل على ليسانس في علم النفس ويمكن القول أن مشاركة فرانتز فانون في الحرب إلى جانب فرنسا قد حطمت كل أوهامه بخصوص فرنسا، فعلى الرغم من مشاركته في حرب هي حرب فرنسا بالدرجة الأولى ضد النازية، إلا أنه وجد أن الرجل الأسود لا يعامل مثل الأبيض، فكان أول ما صدم به فانون هو العنصرية، على الرغم من أن فرنسا في هذه الفترة كانت تحوض حربيا ضد العنصرية النازية الألمانية (فانون، 2011، ص14).

ان تجربة فانون في الكفاح ضد القوات الفرنسية تعتبر محورية في فهم وتحليل فكره ومنهجه، إذ كانت فرنسا تمارس سياسات استعمارية قاسية على الشعوب والمجتمعات الضعيفة، وبصفته طبيبا جراحاً فرنسياً، شهد فانون هذه الاضطهادات والظلم الذي كان يتعرض له السكان المحليون في البلدان الاستعمارية، كما كانت الدول الإفريقية لها أهمية ضخمة في نظر الدول الأخرى، مما جعلها تكافح من أجل الحفاظ على حقوقها وهوية شعوبها وهو ما جعل فانون يتفاعل مع هذه التحركات والثورات المناهضة للاستعمار، والتي بدأت في الجزائر. تأثر فانون بتلك التجارب وسياسات الاستعمار، مما دفعه إلى تطوير فكرة التحرر والمقاومة ضد الظلم والقمع، وجعل من العنف مورداً ضرورياً للتحرر، حيث لا يمكن للشعوب والمجتمعات الضعيفة أن تتحرر من الاستعمار إلا عن طريق مقاومة.

بعد هذا التأثر بدأ فانون في كتابة أعماله المشهورة مثل "الأرض المحروقة" و"المقاومة العريقة"، التي تناولت قضايا العنصرية والاستعمار والتحرر. ومن خلال هذه الأعمال، أثرى فانون النقاش العالمي حول الظلم الاستعماري وأهمية الثورة والتحرر.

بشكل عام، فانون كان من المفكرين البارزين في مجال فهم العنصرية والتمييز العرقي، وقد ترك تأثيرا كبيرا في الثقافة الإفريقية والمجتمعات المستضعفة عالمياً. تجربته الشخصية في الكفاح ومشاركته في التحرر من الاستعمار جعلت منه رمزاً للقوة والصمود أمام الظروف القاسية التي يعيشها.

رافق "فانون" ثورة الجزائر منذ بدايتها، وآمن بأنها ثورة جذرية، ثورة إنسانية أصيلة لن تنحصر في أرضها وشعبها، بل في إفريقيا كلها، وفي جميع البلاد المستعمرة المتخلفة وآمن فانون بأن الثورة هي الطريق الوحيدة إلى تحرير الإنسان، وبأن العمل الثوري هو السبيل إلى أن يتجاوز الإنسان وضعه، والى أن ينتقل من العبودية والضياع إلى الوجود الحر الكريم الخصب (الميلي، دس، ص10).

رأى فانون معاناة الشعب الجزائري من ظلم واستبداد من طرف المستعمر الفرنسي الذي حاول تعذيبه بشتى أنواع العذاب وعمل على طمس هويته مما أدى حسب نظره إلى تشويه نفسية الإنسان الجزائري وذهب على القول بأن مقاومة هذا المستعمر هي الحل الوحيد لتطهير النفس من هذا العذاب.

كما أصر فانون إلى جانب تأليفه للعديد من الدراسات والأبحاث العلمية والكتب الفكرية أنه شارك في النضال بدينا، دون الاكتفاء بالتنظير، فترك عمله واستقال من منصبه كطبيب نفسي في رسالة مفتوحة وانظم إلى الثورة الجزائرية (الشيشاني، 1992، ص 100).

وأثناء مروره بتونس عام 1909م أجرى فحوصات طبية كانت نتيجة التشخيص واضحة: "سرطان في الدم"، وهو مرض من الأمراض المستعصية في ذلك الوقت، فكان يعرف وهو في سن الخامسة والثلاثين من عمره أنه سيموت، إلا أن هذا المكافح كان لا يريد لأفكاره وأقواله ولتجربته أن تموت معه (كبير، دس، ص 02).

وافته المنية في 6 ديسمبر 1901 ودفن في مقبرة مقاتلي الحرية الجزائريين (عبد الله، 2008، ص 402) وهذا يبين مدى قيمة المفكر والمناضل "فانون" لدى الجزائريين ومدى ارتباطه الوثيق والعميق بإفريقيا عامة والجزائر خاصة والدور الفعال الذي قام بتأديته سواء عندما كان طبيبا أو حتى عند انضمامه ومشاركته القيمة في العمل السياسي الثوري.

قام فانون بكتابة العديد من الأعمال التي تناولت مشاكل العنصرية والتهميش الاجتماعي والاستعباد. من أبرز أعماله "البشرة السوداء، الأقنعة البيضاء" التي تناولت تجربته الشخصية كطبيب مارتينيكي في الجزائر المستعمرة وتأثير العنصرية على الأفراد والمجتمعات.

بصفة عامة، كانت شخصية فرانز فانون تجسد النضال ضد النظام القائم والتمييز العنصري، وكانت رمزاً للثورة والحرية والتحرر. إرثه العقلي والنضالي مازال حاضراً في الحركات الاجتماعية والعمل النضالي في جميع أنحاء العالم.

2. موقف فرانز فانون من العنف الكولونيالي:

وصل فانون إلى استنتاج أن العنف ليس مجرد رد فعل فردي أو سلوك عشوائي، بل هو نتيجة لتاريخ طويل من الظلم والاستعمار والقهر، وبناءً على ذلك، طرح فانون فكرة التحرر من هذا الواقع من خلال مفهوم "التحرر النفسي" الذي يعني تغيير الوعي الذاتي للأفراد وتحريرهم من الدوافع السلبية المتأصلة في الماضي، ويمكن القول إن فانون أدرك بأن العنف الذي ينشأ في الإنسان المستعمر هو نتيجة للعنف التاريخي الذي تعرض له في الماضي، وقام بتطوير فكرة التحرر النفسي كوسيلة لمعالجة هذا الواقع.

استلهم فانون فلسفته ونظريته من التجربة الجزائرية والإفريقية بشكل عام، فتجربته كطبيب نفسي في الجزائر شاهد من خلال تجاربه المباشرة آثار العنف الذي تعرض له الجزائريون تحت الاستعمار وقام فانون بدراسة هذه الآثار وأدرك أن العنف الذي ينشأ في الإنسان المستعمر ليس إلا نتيجة للعنف الذي تعرض له في الماضي.

وجد فانون أن العنف الكولونيالي ليس مجرد ظاهرة سياسية واقتصادية، بل يؤثر أيضاً على النفسية الفردية والهوية الجماعية للشعوب المستعمرة ولهذا كتب فانون كتابه الشهير "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" ليستكشف تأثير الاستعمار على الهوية الثقافية والنفسية للأشخاص من ذوي البشرة السوداء، قدم فانون تحليلاً شاملاً للعنف الاستعماري والعدالة الاجتماعية، واعتبر أن التحرر من هذه الظاهرة يتطلب القضاء على النظام الاستعماري.

تصف الكولونيالية صاحب البشرة السوداء أو الزنجي كما يراه فانون بأنه (صبياني وكسول ومتراخ وبطيء، ويفتقر إلى التاريخ والإنسانية، ويحتاج إلى تدابير قمعية مثل الاستعباد لإجباره على أن يكون منتجاً) (سي غبسون، 2013، ص 35) وهذا التصور ناتج عن العنف الكولونيالي المتمثل في القوة العسكرية و الذي ضمن للمستعمر التفوق والهيمنة حيث لاحظ فانون أن ما يجعل الاستعمار يقوم بهذه الأعمال الظالمة ويقويها هو المؤسسة العسكرية التي تعتبر المرجع الذي يرجع إليه المستعمر، فهو سياج الأمان بالنسبة إليه، يقول في هذا الصدد "إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقابله، عنصر مخرب يشوه كل ماله صلة بالجمال والأخلاق إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل لإصلاحها لم يكن العنف الاستعماري فقط في شكل مجازر بل تعدى ذلك إلى تشويه صورة

الآخر، فلذلك شبهه فانون بأنه شر شيطاني مطلق" (فانون، 2011، ص 04). وهي أيضا نزوع الدول الكبيرة لفرض سلطان إرادتها على البلدان الأخرى و الاحتفاظ بهذه السيطرة بمختلف الوسائل السياسية، والاقتصادية و العسكرية و محاولة تغير هوية البلدان المستعمرة، وربطها بالدول الاستعمارية ربطاً عضوياً ولغويا وثقافيا واقتصاديا و استغلال ثرواتها ، و أيضا إقامة المشروعات المتعددة فيها" (الكافي، 2006، ص 17) كولونيالية هي علاقة سطوة واستغلال بين دولة ما (المستعمر) والأراضي التي تحتلها (المستعمر)، ويتم تحقيق هذه السيطرة بالقوة ، وتنتج عنها تفاوتات اجتماعية واقتصادية وثقافية بين المستعمر والمستعمر.

فالغف الكولونيالي يعتمد بشكل خاص على الأفكار العنصرية والتمييزية بين الأعراق، على أن يتم استخدام هذه الفروق والتمييزات لتصوير الشعوب المستعمرة بأنها بدائية ومتخلفة، بينما يُصوّر شعوب المستعمر بأنها متحضرة ومتقدمة.

هذا الخطاب الكولونيالي يتعامل مع الشعوب المستعمرة بشكل اجتماعي وقانوني مختلف، فالأوروبي يُعتبر متفوقاً عن الأعراق الأخرى، وهو طاغ عليها بناءً على أوهام عقلية أفرزتها فكرة الامبريالية الأوروبية ويتم بناء التصور الأوروبي على نظرة ثنائية للعالم بين "برابرة" و "متحضر" أو "التوحش" و"التمدن" أو "الأسود" و"الأبيض".

3 العنف المشروع عند فرانز فانون:

يعرف الأستاذ محمود يعقوبي العنف في معجمه الفلسفي "العنف هو استعمال القوة بصورة غير قانونية للحصول على شيء مرغوب فيه، أو استعمال القوة لاسترداد حق مهضوم أو لحمايته استعمالا يستمد مشروعيته من غايته مثل: العنف الثوري" (يعقوبي، 2009، ص 116) يشير إلى أن هناك نوعين من العنف الغير مشروع والعنف المشروع، فالعنف الغير مشروع هو استعمال القوة من أجل القوة، أما المشروع فهو من أجل الحصول أو الدفاع عن حق، وهذا ما نجده في أعمال الثورات التي تعد أعمالا مشروعة وهذا ما يؤيده فرانز فانون الذي أقر بمشروعية العنف من أجل الدفاع عن العالم الثالث والوقوف في وجه الأنظمة الاستبدادية.

صارت مواقف فانون عدائية للاستعمار خصوصا عندما رأى عنصرية الحكومة الاشتراكية الفرنسية في مقابل رغبة الشعب الجزائري بالاستقلال، وعليه أقام فانون صلات مع حركة الصداقات الجزائرية خلال هذه الفترة طلب منها الاعتناء ببعض المجاهدين الذين كانوا يعانون من أمراض عصبية وهذا من خلال التداخل بين العلاج النفسي و الالتزام السياسي انخرط فانون في نضال الشعب الجزائري من أجل استقلاله (الميلي، دس، ص 12).

يذكر الميلبي بعض العوامل التي كانت من أسباب انضمامه للثورة الجزائرية يمكن تلخيصها فيما يلي:

. تأثره بالفلسفة الإنسانية الغربية التي كانت تتعاطف مع قضية أي إنسان.

- اقتناعه بحقيقة الاستعمار

- تكوينه الفكري المناهض للاستعمار

كتب فانون رسالة استقالة من منصبه سنة 1956 م حيث وجه رسالة مفتوحة الى المفوض العام المقيم يعلن فيها عن استقالته من وظيفته بالمستشفى، حيث اوضح في تلك الرسالة احتجاجه على سياسة عدم المساواة و القتل الى مبادئ قانونية موجهة ضد الجزائريين (الميلي، دس، ص 27).

دعا إلى العنف لأنه في نظره هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الاستعمار والاضطهاد الذي يعيشه الفرد في قوله: "سواء قلنا تحريرا وطنيا، أم نخضة قومية، أم انبعث شعبي أم اتحاد بين الشعوب وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة فإن محور الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما" (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 19).

ويشخص فانون الحالة النفسية للإنسان الذي يعيش تحت قهر الاستعمار، ومن أبرز مظاهر هذه الحالة الاغتراب والعذاب النفسي الذي يعانيه، فالدولة كولونيلية تخفي إنسانية الإنسان المقهور وتلجأ إلى شتى الوسائل لأهانتها واستعباده ولن يمحو آثار العنف أي لطف، بل إن العنف الوحيد القادر على محوها والمستعمر يعالج مرضه الاستعماري بإخراج المستعمر بالسلاح فقط(سارتر، 2007، ص89).

كما يرى فرانز فانون أن الإنسان بالعنف يستطيع استرداد هويته المسلوبة وأن يتم الاعتراف بها وبحقوقها كما يؤكد أن في هذه الحالة فإنه لا يكون بالضرورة العنف صالحاً لكل الحالات، وخاصة عندما يحقق بعض أهدافه المتمثلة في حالة الاستعمار بتحقيق الاستقلال، فلقد علمتنا التجربة التاريخية للبلدان المستقلة حديثاً أنها تعيد إنتاج بعض مظاهر الهيمنة الاستعمارية(بغورة، 2020).

كان من أهداف فانون "محو الاستعمار وتغيير نظام العالم بقلبه قلباً تاماً، فإذا لجأ الاستعمار إلى ممارسة العنف المنهجي المنظم، فبأي حق ينتظر من الضحية أن تكبح جماح النفس وأن تمتنع عن اللجوء إلى كل وسيلة تكفل تفكيك ذلك النظام؟" (الحيدري، 2015، ص86).

" فالاستعمار لا يملك عقلاً يفكر به بل يملك القوة والسلاح والتعنيف المادي والمعنوي وفي ممارسة البربرية والهمجية على أبناء المستعمرات ولا يعترف بالأفكار والحوار ولا يدع مجالاً للسياسة والتفاوض هنا فقط وفي هذه الحالة، يتوجب على عبيد العصور الحديثة استعمال آلات ووسائل عنف أكبر للقضاء على العنف الاستعماري... فالعنف لا يقضي عليه إلا عنف أكبر منه" (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص21).

فانون يبرر العنف كوسيلة للتحرر، ويعتبره رداً فعل طبيعياً للتمييز العنصري والقمع اليومي الذي يمارسه المستعمرون، مما يدفع الشعوب المضطهدة إلى ممارسته كعنف مضاد ووسيلة للتصدي الاستعماري والعنصرية، ولهذا العنف وسيلة للدفاع عن النفس والوطن والكرامة الإنسانية، التي تم انتهاكها بسبب الاستعمار.

4. الموقف السياسي من العنف عند فانون:

يمثل الفكر السياسي أحد أبرز التوجهات الإنسانية التي تضم كافة الإجراءات والسبل لاتخاذ القرارات المختلفة من أجل الحفاظ على استقرار وسلامة وأمان الجماعات البشرية، ويعد فرانز فانون واحداً من أبرز المفكرين الذين دعموا حركات النضال المسلحة والشعبية من أجل إنهاء الاستعمار في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تزال أفكاره الأكثر تأثيراً في أذهان الشعوب وبخاصة الإفريقية منها، فلقد كانت حياته القصيرة مفعمة بالكفاح سواء بسبب مشاركته الصادقة في نضال الاستقلال الذي قام به الشعب الجزائري ضد فرنسا وكذا تحليلاته العميقة والمؤثرة لإثارة الدافع البشري نحو الحرية في السياق الاستعماري.

يرى فانون في السياسة أسلوباً للوصول إلى السلطة وخدمة المصلحة الخاصة كخطابات الأحزاب السياسية وهي نشاط من النوع الانتخابي حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها وحق الإنسان في الكرامة، فالأحزاب السياسية الوطنية ليس هدفها استعمال القوة ولا قلب النظام بل هي أحزاب مسالمة تنادي بالمشروعية والبحث عن مقاعد في السلطة (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص35) ويلفت إليها النظر فيما سماها بالبرجوازية الوطنية هدفها الحصول على بعض الامتيازات فيما يبقى الحل الوحيد للخروج من الاستعمار من وجهة نظر فانون هو الجلوس على موائد التفاوض رغم أنها بروز لاستعمار جديد تمثل البرجوازية الوطنية والتي ستحكم بعد الاستعمار وتكون ذراعاً له، ومن خلفها جماهير ذليلة ضاعت هويتها في غمار الثقافة الاستعمارية التي فرضت نفسها في "معذبو الأرض" هي العنف فهو يري أن العنف هو السبيل الأوحى للقضاء على الاستعمار (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص36).

فالأحزاب السياسية البرجماتية تنصب أهدافها في الحفاظ على الوضع الحالي بهدف المساهمة في الانتخابات والحوز على نصيب من السلطة، أما طبقة المثقفين فهي عنيفة ثورية في كتاباتها ولكنها إصلاحية في أعمالها وممارستها، أما الطبقة البرجوازية فهي بالأساس مرتبطة بسلطة المستعمر من الاستحواذ على السلطة لتصبح خلفاً له (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص35).

توجد ثلاثة أنواع من «السياسة» في نظرية فانون، النوع الأول هو السياسة بوصفها سيطرةً، حيث أنّ القدرة على الهيمنة تستند على أوليات الاستغلال الرأسمالي والكولونيالي، وعلى أنماط الاضطهاد المرتبطة بها، وعلى تشابك العنف فيها، والنوع الثاني هو السياسة الحزبية الفاسدة للنخب الناشئة، إذ تحاول هذه السياسة أن تتجاهل، بشكل غير نافع، واقعية العنف الكولونيالي وضرورة العنف الثوري بالطريقة نفسها بأمل أجوف لتسوية سلمية، ويتبنى ممارسو هذا النوع الثاني من السياسة مسالة (peacability) صانع الرّيح، أما النوع الثالث، فتمت سياسة فعالة ونزيهة للشعب، وفيها يكون الاستعمال الإيجابي للعنف ممكناً، علاوةً على ذلك، فإنّها تُنمذج وتُبتسّر بشكل جديد للنظام الحاكم دون عنف، وبعلم جديد للإنسانية (هتشينجز، فريزر، 2016).

يرى فانون في السياسة وسيلة للكفاح وأسلوباً لإعداد الشعب لقيادة البلاد قيادة واعية من خلال النضال الموحد بعيداً عن تلك الخطابات السياسية التي تكتفي بالشعارات دون النزول الى واقع الشعوب المضطهدة، كما يرى في السياسة جزءاً مهماً في العنف الثوري المنظم الجامع بين الثورة ككفاح مسلح والثورة كمتقف واعٍ يدافع عن سيادة بلاده وفقاً لمفهوم الأمة.

5- العنف وأخلاق السياسة عند فانون:

العنف يمكن أن يكون أداة فنية تستخدم لتحقيق التغيير السياسي والتحرر. هذا ما اهتم به فانون بتحويل العمل العنيف إلى فعل فني يشكل ويعيد تشكيل القيم والأفكار في المجتمع، العنف الثوري وفقاً لفانون يمكن أن يكون شكلاً من أشكال الاحتجاج على القوى الظالمة والاستبداد السياسي والاستعمار ولهذا يعتبر هذا النوع مشروعاً أخلاقياً وضرورياً لتحقيق الحرية والعدالة واستعادة الكرامة الإنسانية، ولا يعني ذلك أن فانون يروج للعنف بشكل عشوائي أو غير محدد، بالعكس، يشدد فانون على أن العنف يجب أن يكون موجهاً ومرتبئاً بأهداف سياسية وهدفه النهائي هو إعادة تشكيل النظام السائد وتحقيق العدالة والمساواة.

يمكن اعتبار فلسفة فانون حول العنف والأخلاق السياسية معقدة ومتعددة الجوانب، فهو يروج لاستخدام العنف كوسيلة فنية وأخلاقية لتحقيق التغيير والتحرر من الاستعمار والاضطهاد السياسي، وفي نفس الوقت يصبح حذراً في توجيهه وتحديد له للحفاظ على مبادئ العدالة والإنصاف.

ينتقد فانون فكرة الجمع بين السياسة والعنف في نموذج المثقف الثوري كروية إصلاحية يؤكد من خلالها على الطابع الجدلي العائقي بين الإيتيقا والسياسة، فإذا كان فانون يرى " النخبة المثقفة عنيفة في الأقوال إصلاحية في المواقف والأعمال " (فانون، المعذبون في الأرض، 2015، ص 97) فهذه الإصلاحية لها ما يبررها اجتماعياً وسياسياً.

يرى فانون أن الطبقة المثقفة تعتبر عائقاً للعنف الثوري لأنها غالباً ما تنادي باللاعنف كسياسة تفاوضية مع المستعمر قصد تهدئة الوضع والحفاظ على المصالح العامة وان ظهرت نخب إنتاجية للعنف سرعان ما يتم اعتقالها واستبدالها لمثقف خاضع لسلطة المستعمر.

ينتقد فانون المثقف البرجوازي لأنه غالباً ما يكون عائقاً للثورة خاضعاً لقانون الخوف مع السلطة الاستعمارية فيحاول جاهداً تحسين الوضع الاجتماعي دون التحرر من السيادة الاستعمارية " إن الحلول السياسية التي تطرحها هذه النخب ليست في صالح الشعوب بل هي استنفاد لقدرة على المجابهة " (فانون، المعذبون في الأرض، 2015، ص 104).

في مقابل ذلك يدعو فانون إلى عدم الاكتفاء بالمثقف العنيف في أفكاره بل يدعو للمشاركة في العمل المسلح " فالمعركة ليست فقط معركة كتابات وأفكار فقط، بل هي معركة أبدان أيضاً " (فانون، المعذبون في الأرض، 2015، ص 104) إذا العنف هنا حق ويجب الأخذ بهذا الحق لأنه دفاع عن النفس وتسخيره في خدمة القضايا العادلة من أجل تحقيق المصلحة العامة، فالمعركة هنا هي قضاء على التبعية والاستعباد والاسترقاق والعنف فيها لم يعد عنفاً بل طريقاً للتحرر والاعتراف بالحرية الإنسانية.

كان فانون يعتقد بأن المثقفين إذا لم ينجحوا في خدمة القضايا على المستوى الشعبي، لم يستحقوا هذه التسمية، وصاروا خونة للأمانة العقلية التي حملتها لهم البلاد فإما أن يبلغ صوت المثقف آذان الجماهير وإما أن يظل دائماً في حكم الفاشل الذي لا يحقق رسالته، ولا

يخدم قضية ولا يفيد إخوته من قريب ولا من بعيد(جيفري،2007،ص23) بهذا يدعو فانون إلى أن العنف الذي يريد الوصول إليه للتحريض لا يكون بقوة السلاح فقط لخروج المستعمر، بل عن طريق الوعي الفكري والانفتاح على الثقافات الأخرى والقيم التي سادت في المجتمعات المثقفة.

يجمع فانون بين السياسة والعنف في بعدها القيمي من خلال التركيبة الاجتماعية الإفريقية لأن أهم ما يميزها أنها ذات تقاليد وعادات ولا تهتم بالعرق، بهذا تحقق التحرر في إفريقيا يكون بإعادة هيكلة النظام الاجتماعي دون النظر إلى هذه الفروقات والعنصرية التي عايشها فانون في موطنه ولم يستطع محاربتها ويصر فانون على أن حركة التحرر الوطني والثورة الاجتماعية ينبغي أن تتلاحم في انطلاقة موحدة، فقد كان يؤمن بأنه ينبغي أن لا يسمح للبرجوازية بأن تجد الظروف اللازمة لوجودها ونموها في الأقطار المختلفة(كوت،1971،ص128) إذ يؤكد على فكرة تصحيح الوعي في عملية التحرر باعتباره وسيلة مهمة لإعداد شعب واعى لقيادة ثورة ناجحة، كما طالب فانون " بثورة اجتماعية تطال كافة بني المجتمع وصولاً إلى الحالة الاشتراكية التي نادى بها، حيث تسود المساواة بين فئات الشعب وتشكل مجتمعا جديدا له هوية وطنية تعبر عنه وعن أهدافه وحاجياته بدلا من أن يكون تابعا للمركز الاستعماري" (البسطمائي،2009،ص68).

فلا يمكن نيل الحرية والمساواة والتأسيس لعالم أساسه الاستقرار والاحترام المتبادل وإبراز وجودية الإنسان الا من خلال صناعة وخلق كيان ديمقراطي يضم هذه الحقوق، انطلاقاً من مبدأ ما أخذ بالقوة يسترجع إلا بالقوة أو كم اسماء فانون "العنف الثوري"، فهذا العنف أو الثورة نتاج لتسلط وظلم من البلدان المتقدمة والسلطات العليا ضد الطبقات الدنيا البسيطة، هذا الأمر الذي حث عليه "فانون" في جميع مؤلفاته وعائشه مع واقع الثورة الجزائرية.

إذ يعتبر الاستعمار أزمة إنسانية في تاريخ البشرية وزواله لا يتحقق إلا بالعنف المضاد ووعي الثوار بأهمية خضوعهم للحزب السياسي الواحد، يقول فانون " يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوروا جموع المقاتلين، أن يعلموها، أن يثقوها، أن يبثوا عقيدة، يدرك قادة الثورة إن عليهم أن يخلقوا جيشاً أن يركزوا السلطة، إن علينا أن نصحح التبعض والتشتت" (فانون،المعذبون في الأرض، 2015، ص 79) والعنف ظاهرة سياسية تحكمها شروط اجتماعية واقتصادية وتاريخية، فلا يمكن أن ينفصل العنف عن السياسة ولا يمكن للسياسة أن تحقق أهدافها بدون استعمال العنف، وليكن عنفاً مشروعاً الهادفاً إلى تغيير الأوضاع بشكل جذري، إذ العنف والسياسة ظاهرة طبيعية مسارة لصيرورة الحياة، و ضامن لإنسانية الإنسان القادر على التغيير للأفضل عن طريق العنف كوسيلة سياسية تدعو للسلم والتعايش الصحيح القائم على العدالة والقانون.

6. العنف المسلم والحاجة إلى التحرر:

تعززت أطروحة العنف المشرع عند فانون اعتماداً على مبدأ " ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة" إذ هيمنة العنف في عالمنا لا يعني نهاية الحوار وإلغاء الحرية بل هو فرض لقوانين من شأنها أن تحفظ التسامح المجتمعي والكرامة الإنسانية والعنف المشرع هنا يعتبر قانونياً بحجة مقاومة المستعمر والدفاع عن النفس.

إن نموذج المستعمرات التي تكافح من أجل حريتها خير دليل على مشروعية العنف عند فانون وهو مطلوب مادام لا يتعارض مع قيم الأخلاق مثل الشرف والكرامة (فليس العنف، في فكر فانون، فعلاً مجانياً أو ممارسة عشوائية، بل إنه يمثل محركاً للتاريخ، وهو ليس ردة فعل على عنف آخر ظالم وغير مشروع، إنه اختيار وجودي: إما المقاومة المسلحة وإما العبودية الأبدية، إما الحياة وإما الموت " إن انبثاق الأمة الجديدة وتدمير النظم الاستعمارية هما إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمر وإما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى فيضغط على النظام الاستعماري" (فانون،المعذبون في الأرض، 2015، ص 42) وينتج عن ذلك أن الشعوب باعتمادها على العنف تسعى إلى المحافظة على نظامها وأصالتها من خلال ضمان توازن المصالح تحت مفهوم الحوكمة السياسية.

فانون ربط بين العنف والوعي التاريخي كجزء طبيعيًا من حياة الإنسان. ومن وجهة نظره، يكون العنف مشروعًا في حالة الكفاح من أجل استعادة الأرض والحق في السيادة والحفاظ على الهوية. بالإضافة إلى ذلك، يرى فانون أن العنف يمثل نظامًا سياسيًا جديدًا تتبناه الشعوب المستعمرة كجزء من تأكيد وجودها الانساني، وهو بذلك مدخل للتحرك من شتى أنواع القيود في صورته الايجابية التي ركز عليها فانون وحاول من خلاله التأسيس لفلسفة أنطولوجية متمردة عن واقع تحكمه القوى الكولونيالية التي تتبنى قاعدة اللامساواة والظلم، في مقابل ذلك انتقل فانون بفضل فكره النضالي المتحرر المتشبع بروح الكفاح من فلسفة التحررية كنتظير إلى ممارسة فعلية تمثلت في شخص فانون كعضو فاعل في الثورة الجزائرية إيمانًا منه بحق الفرد في الحرية والسيادة، وذلك من خلال محو الاستعمار وتغيير نظام العالم. وعندما يتم استخدام الاستعمار العنفي المنهجي والمنظم، فإن الضحية ليس لها أي حق في الامتناع عن استخدام جميع الوسائل المتاحة لتفكيك هذا النظام واستعادة حقوقها.

تعد التجربة الجزائرية مثالًا للمعنيين (العنف الاستعماري والعنف المسلم) إذ يعتقد فانون أنها كان مختلفة عن أي تجربة أخرى في الاستعمار بسبب عنفه وروحه الجذرية ومحاولته لحو الهوية الوطنية الجزائرية والقضاء على أي جيوب للمقاومة. ونتيجة لذلك، تطورت الثورة الجزائرية إلى مستوى كبير من الراديكالية والكفاح المسلح، وأصبحت الأفكار الثورية لفانون، التي تمزج بين الماركسية والوجودية وعلم النفس، جزءًا جذريًا من الثورة الجزائرية، حيث أثبتت قيمة الثورة نفسها من خلال قيمة الأفراد الذين شكلوها. وشكلت الثورة فانون وجعلت اسمه مرتبطًا بالعنف الثوري، الذي نجح في إسقاط الاستعمار الفرنسي.

تشير أفكار فانون الثورية والمناهضة للاستعمار نقاشًا واسعًا بين المثقفين من جميع الجهات، سواء كانوا معارضين أو مؤيدين. ومع ذلك، يتفق الجميع على أن اسم فانون وفكره مرتبطين بكفاح الشعوب المضطهدة وصراع العالم الثالث من أجل الاستقلال ضد الاستعمار. وقد نظر فانون إلى العنف كأداة جماعية مسالمة لشعب محتل يسعى لكسر قيود الاستعمار واستعادة حرته.

IV- الخلاصة:

حاول فانون تفعيل صورة المقاومة واسترجاع الحق في اعتماد العنف كوسيلة دفاعية يسعى من خلاله إلى التحرر المشروط في الدخول تحت قيادة الحزب السياسي الواحد كموجه منظم لهذا العنف ففانون يراهن أن الحقيقة الإنسانية بذاتها لذاتها لا تتمكن من الاكتمال إلا في الصراع وبما ينطوي عليه من مجازفة. هذه المجازفة تعني أن أتجاوز الحياة نحو خير أسمى ألا وهو تحويل اليقين الذاتي الذي أملكه عن قيمتي، إلى حقيقة موضوعية، مقبولة علميا مؤكدا على أن الحرية تأخذ ولا تعطى.

يرى فانون أن العنف الثوري يعزز الانتماء الوطني ويوحد المجتمع، وأنه السبيل الوحيد لتحقيق التغيير والتحرر من الاستعمار. كما يتحدث عن ضرورة بناء حركة ثورية تضم جميع فئات المجتمع وتعمل على إحداث تحول جذري في النظام الاستعماري. ويشدد على أن العنف ليس خيارًا فرديًا بل خيارًا سياسيًا، وأنه يجب استخدامه بحذر وحسن تقدير لتحقيق النجاح في الثورة وتحقيق السيادة

لم يتردد فانون في وصف الاستعمار بالعنف الشامل الذي يتضمن كل أنواع العنف السياسي والعسكري والثقافي والنفسي، ويعتبر التعذيب الجسدي والنفسي مثالًا صارخًا للعنف الاستعماري، وعنصرًا أساسيًا في النظام الاستعماري، وليس عرضًا من عوارض الاستعمار أي يجب النظر إليه بوصفه آلية ملازمة للاستعمار.

ولقد شكلت التجربة الجزائرية، وخاصة ثورة التحرير الوطني نموذجًا ملهما له، وكذلك بعض التجارب الأفريقية التي تعرف عليها عند ما كان ممثلًا للثورة الجزائرية في عدد من البلدان الأفريقية كما يعلن بأن العنف الذي لا يمكن قهره، إنما هو جوهر الانسان إذ يعيد خلق نفسه بنفسه، وهنا يحث فرانز فانون على ضرورة العنف إذا لزم الأمر ويؤكد على أهميته البالغة. وأن معذبي الأرض كما وصفهم لا يمكن أن يصبحوا بشرًا إلا عبر العنف.

التعليقات:

- * الأنتيل: تسمى أيضا جزر الكرايب أي اسم سكانها الأولين الهنود الكرييب والذين ذهبوا ضحية الاستعمار الأبيض. للمزيد ينظر: (فرانز فانون: من أجل إفريقيا، ص99).
*المارتنيك: إقليم فرنسي يقع في البحر الكاريبي، يحده المحيط الأطلسي، (للمزيد ينظر: محمد العربي الزبيدي: المثقفون الجزائريون والثورة، 1991، ص18).

الإحالات والمراجع:

- 1إبراهيم الحيدري: (2015)، سوسيولوجيا العنف والإرهاب، لبنان، دار الساقى.
2إسماعيل عبد الفتاح الكافي: (2006)، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، القاهرة، كتب عربية.
3الزواوي بغورة: (2020)، الهوية والعنف نحو قراءة جديدة لموقف فرانز فانون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، <https://www.mominoun.com>.
4سليمة كبير: فرانز فانون المفكر الغائب في أعماق الثورة الجزائرية، مرا: ساعد العلوي، الجزائر، المكتبة الخضراء للنشر والتوزيع.
5جون بول ساتر: (2007)، مواقف مناهضة للاستعمار: تر: فاطمة بلجرد ومحمد معراجي، مرا: أحمد معراجي، الجزائر، منشورات ANEP..
6دافيد كوت: (1971)، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر فرانز فانون، ت: عدنان الكيالي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
7عبد الحميد حيفري: (1971)، فرانز فانون - بعض ملامح الشخصية الجزائرية في كتاباته، الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش.
8علي قصير: (2018)، فرانز فانون فيلسوف المعذبين في الأرض، مجلة الاستغراب، بيروت، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، عدد 12.
9فرانز فانون: (2011)، سيكولوجية الاضطهاد، تر: صالح الزروق، صحيفة المثقف، www.almothaqaf.com
10 فرانز فانون: (2015)، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال أناسي، القاهرة، مدارات للأبحاث والنشر.
11فرانز فانون: (دس)، من أجل إفريقيا، تر: محمد الميلي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12كيمبرلي هتشنجز، إيزابيث فيزر: (31/05/2016) حول السياسة والعنف حنة أرندت في مقابل فرانز فانون، ت: كرم محمد، سوريا، مجلة الجمهورية <https://aljumhuriya.net/ar>.
13مراد البسطمائي: (2009)، أقتعة تحررية: غاندي-فانون-سعيد، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الديمقراطية وحقوق الإنسان، لبنان، جامعة بيروت.
14محمد العربي الزبيدي: (1991)، المثقفون الجزائريون والثورة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للإشهار والنشر
15محمد الميلي: (دس)، فرانز فانون والثورة الجزائرية، بيروت، دار الكتاب العربي.